على هامش مؤتمر القمة الأسلامية (فى الأستشراق)

يوهان جوتفريد هيردر ودوره الرائد فى علمى الإستشراق والمصريات

د. أحمد كامل عبد الرحيم

ان تاريخ الإهتمام بالشرق على الأرض الألمانية يرجع أساساً إلى القرون الوسطى تجلّى فى شخصية الملك شارلمان « ٧٨٦ ـ ٨١٤ » الذى يُعتبر عصره نقطة تحول هامة فى الحياة الفكرية للشعب الألمانى ، فلقد اهتم شارلمان بخلق علاقات ودية مع الدولة العباسية فى المشرق العربى فى شكل صداقة وطيدة مع الخليفه هارون الرشيد « ٧٨٦ ـ ٨٠٩ » تبادلا من خلالها الوفود والهدايا.

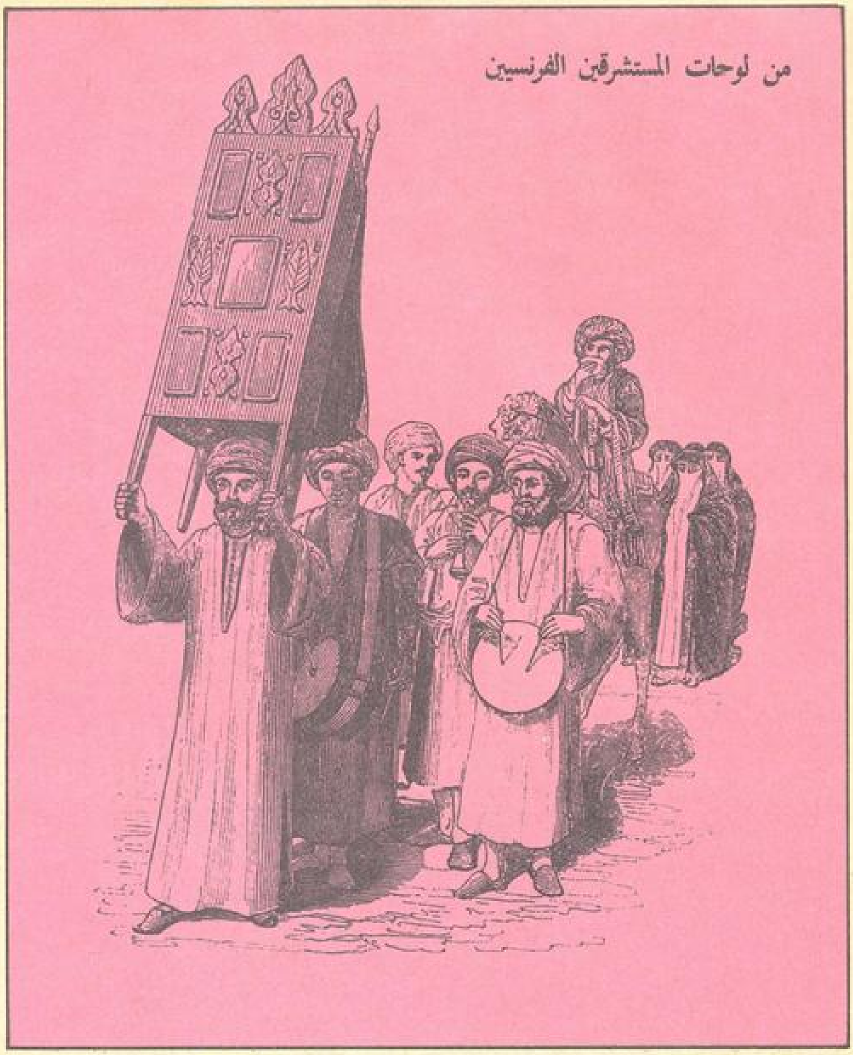
ولقد تطور هذا الاهتمام بشكل مكثف مع الفتوحات العربية للأندلس التى وصلت إلى جنوب فرنسا المتاخم للأندلس ، ومع استيلاء العرب على جزيرة صقلية وطرد البيزنطيين منها وما حدث بعد ذلك فى القرن الحادى عشر من قيام غزو آخر للجزيرة على يد النورمنديين ، تلك القبائل الجرمانية المعروفة باسم غزاة الشمال أو الفايكنج وكيف أن هؤلاء أخذوا عن العرب فنون الادارة وكل سمات ومعالم الحضارة التى توطدت أركانها فى الجزيرة قبل مغادرة العرب لها .

هذا ولقد كانت الحروب الصليبية التى دامت ثلاثة قرون من أهم عوامل الربط الحضارى بين الشرق والغرب فعلى الرغم من طابعها المسلح وبعدها عن أبسط قواعد التسامح الدينى إلا أنها فتحت عيون المحاربين الصليبيين على كل مظاهر التقدم والحضارة فى المشرق العربى حتى أنهم أخذو معهم إلى بلادهم كل فكر حضارى شرق عربى ، وما يدعو إلى الدهشة أنه كان هناك قادة ألمان ذهبوا إلى الشرق على رأس حملات صليبية دون إقتناع بمهمتهم المسلحة التى صدرت إليهم من البابا آنذاك . فما أن وصلوا إلى الشرق مهبط الأديان السماوية كلها ، حتى عمدوا هناك معاهدات سلام مع الملوك والقادة العرب ، ولقد تجلى هذا السلوك البعيد تماماً عن التعصب الدينى فى القيصر الألمانى فريدريش الثانى الذى وصفه المؤرخون بأنه كان عدوًا للبابا فلقد كان فريدريش الثانى نموذجاً يَشهد له تاريخ التفاعل الحضارى بين الشرق والغرب حيث جعل بلاطه القيصرى فى جزيره صقلية أكاديمية علمية تضم علماء عرب وأوروبيين يتبادلون خلالها المعارف فى مختلف العلوم ، فى هذه الأكاديمية العلمية عاش العالم العربى الإدريسى المعروف بكتابه فى وصف الكرة الأرضية ، كما كان فريدريش الثانى على علاقة ودية مع السلطان الأيوبى الكامل فى مصر حيث كانا يتبادلان الرسائل بين الحين والآخر .



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

ان محاور الربط هذه . بين الشرق والغرب كانت دافعا لتطوير عملية الإهتمام بالشرق إلى دراسة منظمة أخذت طابعا علمياً يُطلق عليه اسم « علم



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

الاستشراق » وهو ما يوصف بشكل عام على أنه علم يتعمق العلماء الأجانب من خلاله فى دراسة كل مظاهر الحضارة العربية من تاريخ ودين وعلوم وآداب وعادات وتقاليد .

أما عن الاستشراق والمستشرقين فهناك سؤال يطرح نفسه وهو هل لا بد لعالم الإستشراق أن يزور الشرق ... أم أن الاديان باعتبار ان الشرق مهبطها ووليد حضارتها ، هى من أهم دعائم خلق الخلفيه العلمية المتينه وبعث قوة الجذب الروحية لدى المستشرق ؟

فى القرن الثامن عشر الميلادى ومع بداية حركة التنوير الألمانية إهتم لأول مرة علماء ألمان بأبحاث الشرق عامة وبأبحاث الشرق العربى الإسلامى بنوع الخصوص ، فلقد ظهرت آنذاك مجموعة من المفكرين والأدباء الألمان أنارت الطريق وحددت معالمه للجيل الصاعد من المستشرقين الألمان . وكان الإهتمام بدراسة الأديان هو بداية الشرارة للانطلاق إلى آفاق بعيدة فى مجال الإستشراق . وان كنا هنا نريد أن نبرز الأديان كمنهل للمهتمين بالشرق فإننا لا يجدر بنا أن نغفل المنهل الأول وهى



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

كتب الرحلات التى من باكورتها وأهمها كتاب آدم أوليا ريوس(١٦٠٣ - ١٦٧١) بعنوان « وصف الرحلة الشرقية » . لقد ذهب أوليا ريوس إلى الشرق وعلى وجه التحديد إلى بلاد فارس عام ١٦٣٣ ورافقه فى رحلته التى استمرت خمس سنوات صديقه الأديب باول فليمنج (١٦٠٩ - ١٦٤٠) الذى أضفى على وصف الرحلة أناشيد وأشعار وطنيه ولا ننسى هنا أيضا تأثير إنتاج أوليا ريوس الأدبى على الأدب الألمانى حين ترجم جوليستان السعدى (عام ١٦٥٤) وصنف معجم اللغات العربية والتركية والفارسية كما لا ننسى أيضا تأثر الكثير به أمثال هاجيدورن وجيللرت وليسينج وهامان وهيردر .

ولقد تميز القرن الثامن عشر بالمنهج الشمولى حيث كان من أهم سماته لا فى ألمانيا وحدها بل فى كل دول الغرب على حد سواء . ففى هذا القرن لم يكن يكتفى المرء آنذاك بأن يكون أديباً فحسب أو فيلسوفاً بل كان يسعى لأن يكون أديباً ومفكراً وفيلسوفاً وعالم طبيعيات ومؤرخاً وعالماً تربوياً كلما سنحت له الفرصة بذلك والحقيقة هى أن يوهان جوتفريد هيردر قد جمع بين هذه الإتجاهات العلمية المختلفة إلى جانب إهتمامه بعلم الإستشراق بل وبعلم المصريات . وبالنسبة للإهتمام بالشرق فلقد أسهم هيردر إلى جانب جوته وليسينج ورايسكه وميشائيليس وآيشهورن وروكرت وبورجشتال ، بقدر كبير فى وضع حجر الأساس الذى يرتكز عليه علم الإستشراق فى المانيا إلى وقتنا هذا وكان هيردر يقف دائما وراء كل مهتم بحضارة الشرق يشجعه ويؤازره وها نحن نجده يعبر فى كتاباته عن أسفه لما واجهه المستشرق رايسكه من صعوبات حتى وصفه بأنه ضحية الظروف آنذاك التى لم تهيىء له المناخ لتطوير معارفه وإهتماماته بلغات الشرق وآدابها ونجده أيضا يقول عن المستشرق النمسوى هامر فون بورجشتال « فلتزدهر آمالنا التى نعلقها على هامر ، ذلك الشاب السعيد المزوَّد بالمعارف اللغويه وبذخائر الشرق الأدبية »

وان كان جوتة التلميذ قد فاق هيردر المعلم إلا أنه من الثابت أن هيردر الذى تناول الشرق بالبحث والدراسة من مختلف جوانبه الأدبية والفكرية والفلسفية والتاريخية قد دفع التلميذ ليخرج الروائع الأدبية عن الشرق ممثلة فى عمله الأدبى « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » رغم اختلاف الآراء حول تقييم فائدة هذا العمل لعلم الإستشراق فبينما يصفه هانس هاينريش شيدر (١٨٩٦ - ١٩٥٧) بأنه « ينبغى أن يُسمى بالعهد الأعظم لبحوث



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

الشرق » يرى المستشرق المعروف رودى بارت بأن الديوان هو « مجرد حوار شعرى لجوتة مع نفسه وليس له علاقة على الإطلاق بالإستشراق » ، هذا ولقد كان جوتة يؤمن بفكر هيردر وأستاذه هامان (١٧٣٠ ـ ١٧٨٨) فى ضرورة دراسة حياة الشاعر وبلده بجميع جوانبها كى يستسيغ المرء ويفهم ما يقول ذلك الشاعر حتى أنه عبر عن ذلك بضرورة الذهاب إلى بلد الشاعر نفسه .

لم يكن فضل هيردر على فرد أو أفراد فحسب بل كان فضله أعظم وأكبر على حركتين أدبيتين عاشتهما المانيا ، أنها حركة الرومانتيك التى جاءت بعد حركة الكلاسيك والمذهب الإنسانى ومما لا شك فيه هو ان هيردر كان باعثاً ومحركاً لهاتين الحركتين ومن أهم من مهدوا لها فأصحاب حركة الرومانتيك يرون أن أدب أى شعب من الشعوب هو مرآة له كما أن أصحاب المذهب الإنسانى يرون أن كل حضارة من الحضارات لها من المقومات الخاصة ما يؤكد ذاتيتها ويعتبر هذان المذهبان من أقوى الدوافع لدراسة الأدب العربى دراسة تهدف إلى ابراز تطوراته الفنيه وخصائصه التى تؤكد دوره الحضارى . لقد كانت كتابات هيردر وإهتمامه بالشرق عامة وبالشرق العربى الإسلامى خاصة قد وضعت الأساس لأصحاب هذين المذهبين وأعطت لهم نبضاً لا يتوقف للتعمق فى آداب الشرق وإجتماعياته وها نحن نذكر له هنا بعضا من مؤلفاته منها على سبيل المثال : « أفكار عن فلسفة تاريخ الشعوب » و« أيضا فلسفة تاريخ ثقافة البشرية » و« أقدم وثائق الجنس البشرى » و« مستندات عن الأدب الألمانى » و« رسائل تنمية الإنسانية » . وفى الدراسة التى قام بها بعنوان « عن أصل اللغة » (عام ١٧٧١) وضع هيردر قواعد علم تاريخ اللغات السامية وعلاقة كل لغة باللغة الأم وكان يسير على منهاج علمى حيث يطالب للحكم على أى شعب من الشعوب حكماً عادلا ، بضرورة ان يتعرف المرء على هذا الشعب ، كيف نشأ وتربى وبما يتغنى وما هى الأشياء التى يحبها ويهواها كما يتعرف على حالة الطقس الذى يعيشه وعلى سمائه وطبيعته ورقصه وغنائه .

وبدافع الإنسانية كان هيردر يهتم فى كتاباته برفع الوعى الثقافى والحضارى لا فى المانيا وحدها بل فى أوربا بأكملها ولقد كتب يقول : « على أوروبا أن تتزود بالحضارة لا فى أثينا أو إسبرطه ولكن هنا (أى فى الشرق) حيث لا يتزود المرء بتعاليم حكيم أو فنان يونانى ولكن كى يتحلى بروح الإنسانية والحكمة اللتان أكدتا مع الوقت تأثيرهما على وجه الكرة الأرضية » .

ولا شك ان هيردر قد أدى دوراً هاماً فى التعريف بحضارة الشرق عامة وبحضارة الشرق العربى الإسلامى خاصة حيث كان يفهم الحضارة على أنها تقدم نحو الإنسانية بكل جوانبها على وجه البسيطه فى الجزء الرابع من كتابه . أفكار عن فلسفة تاريخ البشرية « قام هيردر إنطلاقاً من خلفية حضارية تاريخية فلسفية بمناقشة أصل واستمرار المسيحية والدور التأثيرى للدين الإسلامى كما أبرز أيضا فى كتاباته دور العرب فى نقل وتوريد الإشعاعات الحضارية إلى جميع بقاع العالم وكان له أيضا دوره التربيه الفعال فى تقديم الدين الإسلامى إلى العالم الغربى بصفه عامة وإلى المانيا بصفة خاصة .... قدَّمه على أنه دين ونظام حكم وفلسفة حياة ولقد كان صادقاً فى عرضه فلم يتناوله بالتجريح أو الاسفاف بل أشاد به ومدحه مما يؤكد إعجابه بتعاليمه ومبادئه حيث جاء ذلك فى وقت كان التعصب للمسيحية فى أوربا وفى ألمانيا قد بلغ

من لوحات المستشرقين الفرنسيين



ذروته فى وقت كان العداء الأوروبى للإسلام والمسلمين قد بلغ أشده بسبب الغارات البربريه التى قام بها الأتراك على أوروبا بدافع دينى متزايد حتى أصبحت كلمة البربر يوصف بها العرب والمسلمون .

وفى خضم هذه الروح العدائية السائدة آنذاك كان هيردر له رأيه المشرف فى سيدنا محمد عليه السلام فلقد أشاد برسالته الإنسانية ورأى فى شخصيته خليطاً عجيباً يجمع بين التاجر والرسول والخطيب والشاعر والبطل والمُشرع وفضلا عن ذلك فإن هيردر رغم عمله الأساسى كواعظ للكنيسه وتكريس حياته لنشر تعاليم دينه المسيحى لم يتجاهل فكر سيدنا محمد إلى جانب المفكرين العلماء من الإغريق فوصفه بأنه محمد الأمى الذى تقاسم مع المفكرين اليونان شرف تحديد مسار الميتافيزيقا بأكملها أمام الأجيال اللاحقه .

أما بالنسبة لنظرية الخلق فكانت دراسات هيردر من العمق بمكان حتى تناولت كل ما جاء فى القرآن الكريم عن هذا الموضوع والعجيب أن هيردر ذكر فى كتابه « أقدم وثائق الجنس البشرى » ما يزيد على عشر آيات قرآنية توضح مكانة الله والعالم والخلق والمخلوقات كما كان هيردر دقيقاً فى ذكر أرقام الآيات والسور نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :ـ من سورة هود

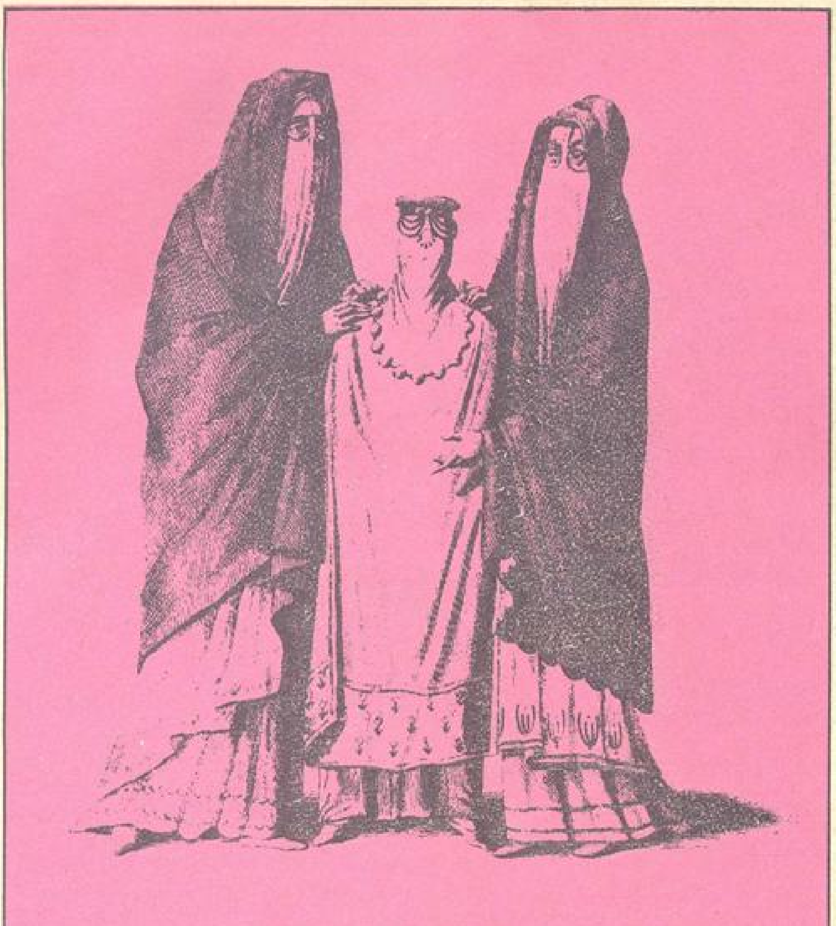
﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ صدق الله العظيم

ومن سورة فصلت : ﴿ قل انكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ صدق الله العظيم

ومن سورة الحج : ﴿ يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة .... ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم .... وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .... ﴾ صدق الله العظيم

وان كان هيردر قد انشغل بعلم الإستشراق فلقد اهتم أيضا بعلم المصريات وتناول فى مؤلفاته دراسات مقارنة للحضارة الرومانية الإغريقية والحضارة الفرعونية .

ففى مجال الفن كان له رأى يخالف رأى فينكلمان أستاذ ألمانيا فى تاريخ الفن آنذاك ورائد حركة



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

الكلاسيك فى هذا المضمار ، والحبه للفن الفرعونى تطاول على فينكلمان ووصفه بأنه متحيز للاغريق وكان يرى أنه لا يجب على المرء أن ينظر إلى كلا الفنين بمنظار واحد حيث أن كل فن له زمانه ومكانه الذى ترعرع فيه وخلاله . كما أن المصريين لم يقدموا أنفسهم للإغريق أو الألمان بل كان فن هو بمثابة مرآة عاكسة لمجتمعهم ومعتقداتهم وحضارتهم بصفه عامة .

وفى مجال الموسيقى والرقص كان له رأيه . لقد مدح الملاحم المصرية القديمة وأشاد بحب المصريين للموسيقى والرقص وكيف أنهم كانوا يرفضون أى فن دخيل ويعتزون بنقاء أصلهم البشرى .

وفى كتابه « أقدم وثائق الجنس البشرى » أخذ يبحث فى نظرية الخلق بمنطقها وبفلسفها ولم يتجاهل الديانة الفرعونية بل اعتمد عليها بشكل كبير فى تناوله لنظرية الخلق حيث أنه يؤمن عن يقين بأن دراسة تاريخ الشعوب وعلى رأسها الشعب المصرى القديم يساعد البشرية على حل لغز العالم القديم .

كما أنه فى نهاية الباب الذى خصصه لمصر فى كتابه « أفكار عن فلسفة تاريخ الشعوب » أخذ فيلسوف التاريخ هيردر ينعى حظ مصر فيقول : « يامصر المسكينه ، كم تغيرت الآن .... فعندما غزى قمبيز هذا البلد مهّد الطريق إليها وأصبحت على مر القرون غنيمة لشعوب يفترسها الواحد تلو الآخر،وأجمل ماكتب هيردر عن الشعب المصرى يتجلى فى هذه العبارات : « إننى لا أعرف أى شعب على وجه نصف كرتنا الأرضية يُمكن أن يتشابه معه فى آلته وطقوسه الدينية . فى فنه وأسلوب حيلته ، فى حكمته ووطنيته وحضارته ، فلا اليونان ولا الشعب اليهودى كما جرؤ أن يتصور سبنسر ذلك لا بالقدر الكثير . أو القليل . ان مصر التى ترعرعت بين طمى النيل هى شعب عريق فى تاريخه الطبيعى وفى تاريخ فلسفته وأن يديه لا تحمل سوى بصماته هو فقط . أنه مسرح تتجلى عليه كل القيم الوطنية ، شامخ سيبقى وفياً مخلصا لذاته »

وفى مجال الأدب الشرق والأدب العربى الإسلامى فلقد لعب هيردر دور الباعث والمحرك



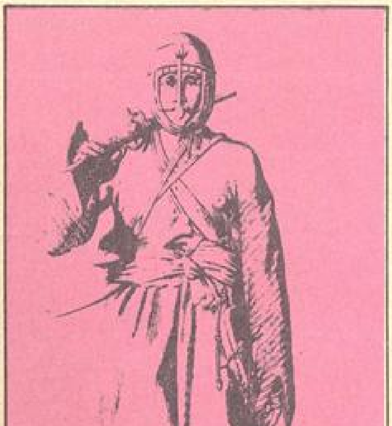
من لوحات المستشرقين الإيطاليين

كى يكف أدباء وكتاب عصره من الألمان عن الارتشاف من أدب الإغريق والرومان وأن يتجهوا بأقلامهم إلى الشرق مهد الأديان والحضارات .

ففى مقالته بعنوان « عن أسباب إضمحلال التذوق الجمالى » قال هيردر : « أن الشرق هو مهد كل الثقافات الإنسانية ، ظل لزمن طويل أرض العبقرية البكر الشامخة العملاقة قبل أن تأتى اليونان وتوقظ الوعى الجمالى » .

وإذا كان زميله هامان قد وصف اليونانين والرومان بالنافورات الخربه وطالب « كى يتزود المرء بالغذاء الروحى أن يحج المرء إلى المنطقة العربية السعيدة وأن يقوم بحملات صليبية إلى بلدان الشرق » نجد هيردر أيضا يكتب فى مؤلفه بعنوان : « عن الأدب الألمانى الحديث » يقول : « ان جزءاً من أشعارنا هى نصف شرقية وخلفيتها هى طبيعة الشرق الجميلة فهى تستمد من بلدان الشرق التقاليد والتذوق الجمالى هذا وسيظل هيردر فى تاريخ الحضارة الألمانية محل مدح وثناء فهو يقف إلى جوار ليسينج وجوته وشيللر فى الصفوف الأمامية لعصر التنوير وحركة الأدب الكلاسيكى ويكفى شهادة جوته شيخ الكلاسيكيين الألمان عنه عندما وصفه بأنه : « المُعلم الحقيقى للإنسانية فى الأمة الألمانية بأكملها » .

وُلد يوهان جوتفريد هيردر قبل ميلاد فولفجانج جوته بخمس سنوات وقبل ميلاد فريدريش شيللر بخمسة عشر عاماً ، ففى الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٧٤٤ رأى هيردر نور الحياة فى المدينه الصغيرة موروبخن البروسية والتى تقع حاليا داخل حدود بولندا . عاش طفولته وصباه فى بيت دينى تتعالى أمامه كنيسة المدينة وترقد خلفه مقابرها ، فى بيت كانت العائلة تستهل وتختم حياتها اليومية بالأناشيد والتراتيل الدينية .



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

وفى مدينة كونيجزبرج تعرَّف هيردر على الفيلسوف الألمانى الكبير إيمانويل كانط ، كما كان الفيلسوف نيتشة قد أولع منذ حداثة سنه بكتابات هيردر الذى كان إلى جانب جوته وليسينج وفيلاند يكتب أيضا فى الحرية والأخلاق والسياسة والنظم الإجتماعية .

وفى مدينة شتراسبورج تعرف جوته على هيردر الذى كان يقضى فترة علاج من آلام فى عينيه إلتقيا العملاقان هيردر وجوته لأول مرة وكانت سعادة جوته بلقاء هيردر كبيرة جدا حيث كانت سبباً فى إنطلاقة فكرية جديدة عند جوته أخذته إلى مجالات متعددة منها الإهتمام بالشرق عامة وبالشرق العربى الإسلامى خاصة ، حتى ان جوته قال فى رسالة بعث بها إلى هيردر : « أريد أن أصلى كما كان موسى يصلى لربه » .

وفى مدينة فايمار مات ودفن هيردر (عام ١٨٠٣) حيث مات ودفن كل من جوته وشيللر ، مات هيردر وأوصى بأن يُكتب على قبرة الكلمات الثلاث « الحب ـ الحياة ـ السلام » .

ولا عجب أن يُطلق على مدينة فايمار مدينة الكلاسيكيين الألمان حيث عاش هذا الثالوث الألمانى فترة فى هذه المدينة وكانت لهذه الفترة إنتاج أدبى لا يزال أدباء ومؤرخو الأدب الألمانى المعاصر يمدحون ويعترفون بعظمة هؤلاء الكلاسيكيين الألمان وإنتاجهم الأدبى الرائع ◆